الفـــن والروح

للاستاذ الحرمانى

أستاذ الادب العربي بكلية طرابلس

الفن فى الأثر بدعة ، وفى المؤثر بدعة وابداع .

فهو فى قول احدى جوارى العباسيين وهى تقلب تفاحة اهداها اليها سيدها

يارب تفاحة خلوت بها تشعل نار الهوى على كبدى
لو أن تفاحة بكت لبكت من رحمتى هذه التى بيدى

هو بدعة أنشأها الفكر بين عاطفة الحب ودقة التصوير ، واما الفن فى الشاعرة نفسها فهو بدعة الجمال وابداع الخيال

فقن الطبيعة فى الانسان جمال تام ، وفى غيره جمال ناقص

والفن فى الزهرة مثلا شكل ولون وعطر ، اذا صح ان العطر فى الزهرة مقابل الروح فى الفنان ، وهذه كل ما فى الزهرة من جمال ، ولكن الفن فيك — الى هذه الثلاثة — فكرة تخلق الزهرة فى نفسك جميلة الشكل واللون والعطر

الفن فى المرئيات نتيجة الفكر والجوارح ، واما هو فيما وراء ذلك فقد يكون وليد الفكر فقط كالفن فى الشعر ، وقد يكون نتاج الفكر والجوارح ايضا كالموسيقى والخطابة ونحوها

تستطيع ان تتصور حبيبك تصورا تاما ، واما أن تصفه للسامع وصفا دقيقا ، او ان تتناول الريشة وترسم ما تتصور فذلك ماليس فى طوقك مالم تكن فنانا فى الشعر والرسم . من ذلك يتضح لديك الفرق بين العلم والفن ، فنواة العلم ان تتصور ، واما نواة الفن فأن تتصور ثم تصور . فتصورك المسألة علم ، ثم تصويرك اياها فن . من ذلك تدرك فضل الفن على العلم وأنه احفل منه بالخلود

فالأثر الذى ينشأ عن الفكر وهو يكشف عن الحقيقة ستار الجهل هو دون الاثر الذى ينشأ عن الفكر وهو يخلق الحقيقة خلقا

فليس للحكمة ان تهب الخلود للشعر وهو عار عن الفن ، ولعل النظم الفصيح القاصر على الحكمة بعيد عن حظيرة الشعر للفرق بين قوله:

كبير النفس تلقاه هزيل الجسم من سقم

وقول الآخر فى معناه :

اذا سمنت همة فى الضلوع فآفتها البدن الناحل

فليس الجمال فى بيان ان هزال الجسم فى عظام الرجال ينم على كبر نفوسهم ، فقل من تأخذه الروعة لهذا البيان ، اذ هو حقيقة مجردة ، والعلم بالحقيقة المجردة أزلى فى النفوس ، ولكن الباعث هذه الحقيقة لونا من الخيال يجعلها حقيقة ثانية لم يسبق لها وجود فى النفس فتظهر بها فى مظهر الروعة والجلال .

فقد لحظ الفكر فى البيت الاخير بعد تصوره المعنى الحقيقى الثابت وهو استلزام كبر النفس اجهاد الجوارح ، واستلزام هذا تحول الجسم ... لحظ الفكر مايقابل التحول وهو السمن ، فشاء ان يجعل السمن الذى هو مقابل النحول علة له وهو من الغرابة بمكان ، ثم لحظ الهمة التى هى مناط الطموح المفضى الى اجهاد النفس فاسند اليها السمن بجامع العظمة بينه وبين الكبر ، فصح له اذذاك ان يعلل به النحول ، فكان من مجموع ذلك خيال يوهم النفس انه حقيقة جديدة فيستهويها بما يبتدعه من خلق مالم يكن وايهامها انه قد كان

واما الفكر فى البيت الاول ، فقد مر بالحكمة فأبرزها عارية من جمال الفن ، فكانت بعيدة عما يصعد بها الى سماء الشعر ، ثم يطبعها على مرآة النفس حية خالدة

فالشعر البسيط المعنى ، هو بجمال فنه اعلق بالنفس الشاعرة منه بجلال معناه ، وهو بعيد عن جمال الفن

والنفس بطبعها ميالة الى البحث عما تجهل « حب الاستطلاع » من اجل ذلك يستهويها الغريب فتعلق به حتى اذا الفته واحاطت به هجرته وملت صحبته ، فهى والحقيقة الراهنة قيد حواسها ، تتشوف الى ما وراء الحقيقة ، فاذا اخفقت فزعت الى الفكر فراح يعبث بها ويملأ زواياها أعجابا بما يصوره من اخيلة تتراءى لها حقائق جديدة

فاذا علمت ان الحياة انما هى حكمة وفن ، وان الحكمة نواميس يسنها فى الطبيعة المبدع الاول ، وفى الاجتماع المبدع الثانى ، وان الفن هو ما فيهما من جمال ، وان مناط هذه الحكمة العقل ، والعقل عرضة للزوال ، ومناط ذلك الفن الروح ، والروح خالدة ؛ اذا علمت ذلك علمت ان الفن انما هو قوام الحياة الاسمى ، فلم تكن لترتاد المروج والحدائق لو لم تؤخذ العين بسحر ما فى زهرها وشجرها وثمرها من جمال الفن ، ولا لتدخل منزلا لم تسبغ عليه يد الفن جمالا يستهويك بين ارائك تتخللها المناضد ، تعلوها الآنية على احدث فن يجلل الجدر بالرسوم ، والارض بالفراش والرياش

وقد يستهويك ماتسمع وترى من جمال الفن فيخلق فيك فكرة الابداع ، فيسوغ لك اذ ذاك ان تقول : إن الفن فى الأثر بدعة وابداع ايضا ، على انه أبداع الفن فى النفس ، ثم يؤول الى ابداع النفس فى الفن آخر الامر

ثم ان للفن فى المسموع لطف وقع على السمع ، وبعد اثر فى اعماق النفس ، لن يتوفرا فى الفن المنظور من حيث تراك وانت

تسمع الصوت الجميل فتهتز ، تتصور جمال العازف وهو بعيد عنك بجسمه ، وقريب منك بروحه الموقعة على الاوتار ينقلها اليك الحاكي ، او يبعثها الى روحك توقيع الفنان من وراء الستار ، فيتوفر لديك مؤثران : الفن الذي نحسه ، وجمال الفنان الذي تتخيله ضرورة انك لا تلحظ الصوت وانت ترى الشخص الجميل ، بينما لا تسمع الصوت الجميل الا وتتصور جمال الشخص من ورائه

الروح فى الفن :

فى كل كائن ثلاث ميز : جنسية ، ونوعية ، وذاتية ؛ فى الانسان مثلا ما يميزه من الجماد وهى حيوانيته ، وما يميزه من العجماوات وهى انسانيته ، ثم ما يميزه من غيره من أبناء نوعه وهى شخصيته . والشخصية هنا هى ما يميز الشخص من أفراد نوعه فى شكله لا فى روحه ، فالروح لا تلمس الا بآثارها ، ولا يمكن للرسام وهو الشاعر الصامت أن يصورها وهى متصلة بالروح (سر الحيـــاة الغامض) ولكنه يستطيع ابراز شخصية النوع كآثار النفس الناطقة لما يدل عليها من أمائر تبدو على أسرة الوجه . ورسم الاعضاء على كيفية تشير الى النفسيات بما عودت الناظر عليه فى حقيقة الحى قبل رسمه

فريشة الرسام لا تتناول رسم الاعضاء بما يميز الشخص فى جنسه أو نوعه فحسب حتى تتناول شخصيته التى تميزه من غيره من افراد نوعه ، ومناط التفاضل بين أولى الفن انما هو فى ابراز هذه الشخصية مشفوعة بميزة النوع

فاذا لم تقرأ فى الرسم ما يقفك على خصائص نوعه كآثار النفس الناطقة فى الانسان من حيث تفكيره وعواطفه ، ثم نسبة هذه الخصائص الكلية فى النوع الى الخصائص الجزئية فى الشخص ، فلن تستطيع أن تقف من هذا الرسم على روح تلمس من ورائها جمال الفن فيه

فالروح فى فن التصوير هى أن تجمع الى خصائص النفس النوعية فيما تصور خصائصها الشخصية التى يمتاز بها الفرد من غيره من ابناء نوعه

فاذا توفرت هذه فى الرسم خلق فى نفسك — وانت تراه — الروعة بما يمثل لك من حقيقة فى الخارج حتى كانك تلمسها بروحك

وهكذا هى — أى الروح — فى تصوير الاشياء : جمال فى الرسم يلمسك حقيقة ما أخذ عنه لمسا تجدك معه — — ا بما تتصفح من خيال رائع

اما الرسوم الخيالية (كاريكاتور) كرموز الآلهة وصور الشياطين ونحوها فمناط الابداع فيها انفعال نفس الناظر اليها بما خلقت له كالجمال والحب والخير والشر فى رسوم الآلهة ، وكالارهاب والتفكهة والحمل على السخرية فيما عداها من الرسوم

فالروح هنا هى تأثير الرسم فى النفس بما رسم له ليصح معنا أن الروح فى كلا الامرين : نقل الحقيقة وخلقها ، انما هى لمماس الرائى حقيقة ما ينقل الراسم أو حقيقة ما يتخيل

والروح الفنية تختلف باختلاف فنونها ، فالروح فى فن الرسم هى غير الروح فى فن النظم ، والروح فى هذين غيرها فى فن الموسيقى ، فهى فى الرسم منتزعة من المرسوم ، واما فى المنظوم فهى منتزعة من الناظم . اذ الشاعر يصور غيره فى طريقه الى تصوير نفسه ، واما الرسام فيصور نفسه فى طريقه الى تصوير غيره ، فنظم الشاعر مرآة تريك نفسه ، ونفس الرسام مرآة تريك رسمه

وبأوضح من هذا إنك وأنت تدرس فن الرسم تتلمس روح الفن من حيث اتصالها بالمرسوم قبل الراسم ، وفى درسك فن الشعر تتلمس روح الفن من حيث اتصالها بالشاعر قبل ما يشعر به ، من أجل ذلك تراك شديد الحرص على معرفة الشاعر لدى سماعك قطعة من شعره هى غاية فى الابداع ، بينما ترى الصورة الجميلة على الجدار فتفتتن بها من حيث فنها ، ثم لا تجدك شديد الميل الى معرفة من أبدعها . فلحاظك الشاعر وهو يستهويك بشعره ، فوق لحاظك الرسام وأنت تعجب بما يرسم

على أن الفرق بين روحى فن الرسم وفن الشعر جد دقيق ، لدقة الفرق بين الرسام والشاعر ، ولعل الرسام شاعر صامت

فالرسام وهو يصور لك الحقيقة فى الخارج تصويرا حقا هو ابلغ اثرا فى الفن منه وهو يخلق حقيقة ما يرسم ، واما الشاعر فمناط خلوده ان يخلق ما يصوره من الحقائق ، لما مر بك من ان الفن انما هو ابداع ، على ان كليهما مبدع كما سيجىء

فليس للفنان فى الرسم مهما ابدع فى خلق الصور الخيالية (كاريكاتور) ما للفنان فى الشعر وهو يتخيل فينتزع لك من الصور الحقيقية صورا خيالية يوهمك انها حقيقة جديدة

واذا قصرنا ابداع الفنان فى الرسم على تصوير الحقيقة الخارجية تصويرا بالغا فليس معنى ذلك ان الفنان لم يأت بجديد فيكون هذا القول معارضا لما سبق من ان الفنان يخلق الحقيقة خلقا ، لانا نعتبر تصويره البالغ للحقائق هو خلقا جديدا لها ، إذ يوهمك انه عين ما يصور

من حقيقة ، فيكون هذا الايهام ابداعا يشير الى حقيقة ثانية خلقها فكر الفنان .

فالحقيقة التى يخلقها الفنان إما أن تكون متحققة فى الخارج مادة وشكلا ثم يصورها لك بشكلها ومادتها حتى كانك تحس بها حقيقة فيثير فيك الاعجاب لما يوهمك من انها هى هى فكانما قد خلقها خلقا ، او ان الحقيقة التى يخلقها هى نفس الايهام مشفوعا بما يبعثه فيك من الروعة والاعجاب

واما ان تكون تلك الحقيقة المخلوقة متحققة فى الخارج مادة لاشكلا كالخيال الذى يبدع الشاعر فانه ينتزع من صور الحقائق الخارجية حقيقة جديدة يوهمك انها موجودة فى الخارج كما فى قول ابن خفاجة فى نارنجة

وحاملة من بنات القنا أماليد تحمل خضر العذب
وتندى بها فى مهب الصبا زبرجدة أثمرت بالذهب

فالزبرجد والاثمار والذهب كل منها موجود فى الخارج ، ولكن الشكل الذى أبدعه الخيال منها وهو اثمار الزبرجدة بالذهب هو غير موجود فى الخارج ولكنه من خلق الخيال .

فالايهام اذن لا يفارق الفن فى الشعر والرسم ، فمناط الاعجاز فى فن الرسم هى الحقيقة الاولى ، ومناط الاعجاز فى فن الشعر هى الحقيقة الثانية ، وقد يعجز الشاعر فى تصوير ما فى الخارج من حقيقة كما قد يعجز الرسام فى ابداع ما يخلق من حقيقة ليس لها وجود فى الخارج

والروح فى فنى الشعر والموسيقى مصدرها واحد هو العاطفة ، على أن الروح فى فن الرسم مصدرها الفكر والخيال ، والفرق بين الروح الشعرية وروح الفن الموسيقى هو أن مظهر هذه هو الصوت من حيث توقيعه وترجيعه ، ومظهر تلك هو اللفظ من حيث يبعث فى نفسك ما انفعلت به نفس الشاعر وهو يلفظه ، وهذه الروح التى تفرق بينها وبين روح الفن الموسيقى ، انما هى الروح التى تقابل الفن والعلم فى الشعر لا الروح التى هى داخلة فى قوام الفن فى الشعر ، فان فى الشعر روحين احداهما داخلة فى قوام الشعر وهى هذه المعبر عنها بالتأثر النفسى المنتقل باللفظ من نفس الشاعر الى نفس السامع أو المطالع كما تنقل الاوتار تأثرات الموقع عليها الى سامعها

وثانيتهما داخلة فى مفهوم فن الشعر وهى المعبر عنها بالذوق الشخصى فى الشاعر ينقلها اللفظ من حيث تصويره للحقائق منقولة او متخيلة ، وهذه تتفق مع الروح فى فن الرسم من حيث المعبر ،

فكلتا هما تصدر عن الفكر والخيال

فالروح فى فن التصوير تتفق مع الروح فى فن الشعر من حيث مصدرها وهو الخيال والفكر ، وتختلفان من حيث امتيازهما فى الابداع ؛ فالاولى انما تعجز فى نقل الحقائق ، والثانية انما تعجز فى خلقها

والروح فى الشعر التى تقابل العلم والفن تتفق مع الروح فى فن الموسيقى من حيث المصدر الذى هو العاطفة ، وتختلفان من حيث المظهر ، فان مبعث التأثر فى نفسك من الاولى هو الصوت من حيث التوقيع والترجيع ، ولا مدلول له الا انفعال النفس من ورائه ، واما مبعث التأثر من الثانية فهو اللفظ من حيث نقله التأثر اليك بواسطة حروفه لا صوته

فمدلول الصوت طبيعى من حيث يتناول ما يختلج فى الصدر بلا واسطة ، ومدلول اللفظ وضعى يتناول روح اللافظ بواسطة مدلوله الخارجى

فلا بد لنا اذن من العود الى ان نعيد قولنا فى الشعر من أنه علم وفن وروح ، فقوام العلم الفصاحة ، وقوام الفن الخيال ، وقوام الروح العاطفة (١)

الحوماني

---

(١) انظر فى كلامنا على الشعر من كتاب العبقرية المائل للطبع

مكتبة النهضة المصرية

١٥ شارع المدابغ أمام جريدة الاهرام

تليفون نمرة ٥١٣٩٤

لصاحبها حسن محمد

أول مكتبة افرنجية يملكها مصرى

تبيع بسعر الخارج

كتب الطب والجامعة المصرية والمدارس العليا والثانوية

نقلت المكتبة الى العمارة المجاورة ملك رنيوتى أدرياتيكى رقم ١٥ أمام جريدة الاهرام وتقع بالضبط بين جريدة الاهرام والبنك الاهلى المصرى